أردوغان الهارب إلى سوريا

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

سيذهب الرئيس التركي رجب طيب أردوغان بعيدا في اختبار نيّات الرئيس الأميركي دونالد ترامب. سيحاول بدوره تجريب حظّه مع ترامب. بعدما نجحت إيران في تفادي أي ردود فعل أميركية على الصعيد العسكري، لماذا لا يجرّب أردوغان بدوره حظّه مع رئيس أميركي حصر كلّ همومه بالعودة إلى البيت الأبيض في انتخابات خريف السنة 2020؟

تركيا ما كان لها الإقدام على الخطوة السورية لولا إدراكها أن ترامب لا يعترض على العملية. تدلّ على ذلك كلّ التصريحات التي صدرت عن المسؤولين الأميركيين في الأيام التي سبقت التحرّك العسكري التركي

بات واضحا أن تركيا انضمّت إلى الذين يراهنون على أن ترامب لن يفوز بولاية ثانية. ولذلك لا بدّ من الاستفادة إلى أبعد حدود من وضعه الحالي، أي من رغبته في تفادي أي مواجهة عسكرية من أيّ نوع.

لو لم يكن الأمر كذلك، لما تجرّأ أردوغان على دخول سوريا من أجل إقامة منطقة آمنة بعمق ثلاثين كيلومترا قد تصل مساحتها إلى نحو خمسة آلاف كيلومتر مربّع. ليس ما تقوم به تركيا سوى استيلاء على قطعة من الكعكة السورية بعدما كرست كلّ من إيران وروسيا وإسرائيل وجودها في هذا البلد. تدفع سوريا ثمن إدارة أميركية أسيرة رغبة ترامب في العودة إلى البيت الأبيض. ولكن في أساس المأساة التي باتت كلّ القوى الفاعلة، بما في ذلك أميركا، تتجاهلها، وجود نظام سوري لا يهمّه سوى البقاء في السلطة حتّى لو كانت دمشق تحت السيطرة الإيرانية أمنيا وأسيرة النفوذ الروسي سياسيا. فضلا عن ذلك كلّه، لم يتردّد النظام السوري، من أجل البقاء، في التغاضي عن تكريس الاحتلال الإسرائيلي للجولان، وهو احتلال مستمرّ منذ العام 1967.

يظلّ التوقيت العنصر الأهم في الدخول التركي الذي نجح رجب طيب أردوغان في إعداد الداخل له وتعبئته. ليس معروفا إلى متى سيبقى الداخل التركي داعما لأردوغان وللعملية العسكرية، خصوصا في حال سقوط عدد كبير من القتلى في صفوف القوات التركية. الأكيد أن تركيا تتحمّل مقتل المئات من العسكريين، لكن تبقى هناك حدود لحجم الخسائر التي يمكن أن تتحمّلها، خصوصا إذا طالت العملية العسكرية والاشتباكات أشهرا عدّة من دون تحقيق هدف واضح، اللهمّ إلا إذا كان أردوغان مصمّما على اقتطاع جزء من سوريا وتحويله إلى جرم يدور في الفلك التركي، كما حال دولة شمال قبرص التركية. هذه الدولة، التي لم يعترف بها أحد غير تركيا، قائمة منذ العام 1974، تاريخ الإنزال التركي في قبرص التي شهدت وقتذاك انقلابا نفّذه اليمين المتطرف في صفوف القبارصة اليونانيين، وأدّى إلى تقسيم الجزيرة.

ما كان لتركيا الإقدام على الخطوة السورية لولا إدراكها أن ترامب لا يعترض على العملية. تدلّ على ذلك كلّ التصريحات التي صدرت عن المسؤولين الأميركيين في الأيام التي سبقت التحرّك العسكري التركي، وصولا إلى تبرير الرئيس الأميركي لطعنه الأكراد السوريين في الظهر. ذهب في تبرير تخليه عن حلفاء الأمس إلى حدّ قوله إن الأكراد، الذين "يحبّهم" لم يدعموا القوّات الأميركية في إنزال شاطئ النورماندي الذي مهّد لنهاية الحرب العالمية الثانية في العام 1945. عاد ما يزيد على سبعين عاما إلى خلف بغية فتح حساب مع الأكراد، من دون أن يكون معروفا هل كان مطروحا مشاركة الأكراد، الذين لم يتمكنوا من إيجاد دولة مستقلة خاصة بهم، في إنزال النورماندي؟

يدفع الشعب السوري ثمن غياب الاستراتيجية الأميركية في الشرق الأوسط، وذلك منذ فترة طويلة. يتبيّن بعد العملية العسكرية التركية أنّ دونالد ترامب لم يكن أفضل من باراك أوباما الذي اختزل كلّ أزمات الشرق الأوسط والخليج بالملفّ النووي الإيراني. لم يقدم أوباما على أيّ ردّ فعل جدّي بعد تجاوز النظام السوري كلّ الخطوط الحمر التي رسمها له، بما في ذلك استخدام السلاح الكيميائي لقتل شعبه. أما ترامب، فقد ذهب بعيدا في التخلي عن الشعب السوري بتركه تركيا تتصرّف بالطريقة التي تتصرّف بها، بما يؤدي إلى تهجير المزيد من السوريين الأكراد والعرب وتكريس وجودها في منطقة سورية تعتبرها مهمّة بالنسبة إليها لأسباب كردية قبل أيّ شيء آخر.

يظلّ أسوأ ما في العملية التركية كونها جاءت متأخّرة جدا ولم تصبّ في خدمة الشعب السوري كما يدّعي أردوغان. جعل التوقيت، الذي كشف تخلي أميركا عن حلفائها الأكراد الذين قاتلوا "داعش"، من تركيا إيران أخرى. فلو كانت تركيا جدّية في دعم الشعب السوري ولا أطماع لها في البلد، لكانت أقامت المنطقة الآمنة باكرا، أي في العام 2011 و2012. هنا أخطأ رجب طيب أردوغان الذي حاول إلباس خطابه عن العملية العسكرية في سوريا لباسا دينيا تحت عنوان "فتح من الله ونصر قريب". ربّما أراد عن طريق الرداء الديني لخطابه الظهور في مظهر رئيس جمعية خيرية مستعد لتقديم تضحيات من أجل سوريا والسوريين...

تعاطت تركيا مع بشّار الأسد باكرا. عرفت أنّه شبيه بمصاب بمرض التوحّد. عرف أحمد داود أوغلو، وزير الخارجية التركي في تلك الأيام، إلى أيّ حدّ يعيش الرجل في عالم خاص به لا علاقة له بالواقع. اكتشفت تركيا منذ آذار/ مارس 2011 خطورة ما يجري في سوريا وأبعاده. فقد ولدت وقتذاك قناعة لدى المسؤولين الأتراك بأنّ بشّار ونظامه هما في أساس المشكلة وأنّه يستحيل استخدام المنطق في التعاطي معه.

بدل اتخاذ الإجراءات المطلوبة للتخلّص سريعا من بشّار الأسد وإنقاذ سوريا، راحت تركيا تماطل وتمارس سياسة الابتزاز. فتحت أبوابها مشكورة لملايين السوريين الذين لجأوا إليها هربا من ظلم النظام وقمعه. لكنها ما لبثت أن ندمت على ذلك. ليس معروفا لماذا أضاع أردوغان كلّ هذا الوقت وصولا إلى تحوله إلى باحث عن دور في سوريا بعدما كان صاحب الدور الأول فيها. هل يعود ذلك إلى العقد التي تحكّمت بالرئيس التركي منذ قرّر ألّا يكون له أي شريك في السلطة؟ هل هذا عائد إلى اعتقاده أنّه يستطيع التنافس مع إيران وروسيا بعدما كان قادرا على قطع طريق سوريا عليهما؟

لا حاجة إلى الترحّم على أحداث الماضي القريب ولا على الفرص الضائعة لتركيا في سوريا ولا على فشل تركيا في المواجهة التي خاضتها مع روسيا والتي انتهت إلى تحوّلها إلى حليف لها. لعلّ أفضل دليل على وجود هذا الحلف شراء تركيا شبكة الصواريخ "أس- 400" الروسية المضادة للطائرات التي ليس معروفا ما الذي ستفعله بها.

الحاجة إلى بحث تركي عن مكان في المعادلة السورية يعوّض الفرص الضائعة في تركيا بسبب العقد التي عانى منها ولا يزال يعاني منها رجب طيب أردوغان الهارب إلى سوريا من أزماته الداخلية، بما في ذلك أزمته مع رجالات حزبه الذين انفضّوا عنه الواحد تلو الآخر.

تركيا تتوارى خلف حربها على الأكراد لترسيخ أقدامها في الساحة السورية

رانيا مصطفى

دقت ساعة الحرب التركية، وبدأ الهجوم ليل الأربعاء الماضي على مناطق تمركز وحدات حماية الشعب الكردية بالقرب من الشريط الحدودي شرق الفرات، وذلك بعد عشرة أشهر من التهديدات التركية، التي عجزت الدبلوماسية الأميركية عن تهدئتها وتلبية مطالب أنقرة الأمنية، بسبب التخبط في السياسة الأميركية، نتيجة التجاذبات داخل إدارة الرئيس دونالد ترامب، بين البنتاغون والقادة العسكريين من جهة، والذين يريدون دعم قوات سوريا الديمقراطية حتى النهاية، والبالغ عددهم 60 ألف مقاتل، بوصفهم حلفاء مخلصين ومقاتلين أشداء ضد تنظيم داعش، وبين دبلوماسيي الخارجية من جهة ثانية، والذين يفضّلون تلبية المطالب التركية، دون التخلي عن الحلفاء الأكراد.

ونهاية العام الماضي، أعلن الرئيس الأميركي دونالد ترامب عن سحب قواته الفوري من سوريا، فيما تمكنت إدارته من تعطيل القرار، لعدم واقعيته؛ الآن وجد ترامب فرصة الهجوم التركي مناسبة لإعلان سحب قواته من الحدود السورية التركية، قبل يوم من بدء العملية العسكرية التركية، هي فرصة ليقول ترامب لناخبيه إنه يفي بوعوده الانتخابية، وهو على أبواب الترشح لولاية جديدة، ويعاني الكثير من المساءلات من قبل إدارته، ويواجه الدعاوى القضائية من قبل منافسيه.

ورغم ما يقال عن الرئيس الأميركي من مزاجية أو رعونة في قراراته، لكنه لا يستطيع الخروج عن سياسة أميركية تتطلبها المرحلة الحالية، تتعلق بالانسحاب من الشرق الأوسط، بدأها الرئيس السابق باراك أوباما، وكان الانكفاء الأميركي عنوان حملة ترامب الانتخابية. وبالفعل، منذ بداية العام الماضي حتى الآن تم تخفيض عدد القوات الأميركية في سوريا من 2000 إلى 500 جندي، وتعويض النقص بقوات من فرنسا وبريطانيا ودول أخرى، فيما تمسكت واشنطن بقاعدة التنف على المثلث الحدودي بين سوريا والعراق والأردن، بغرض الحد من النفوذ الإيراني في سوريا.

ما سبق يعني أن أنقرة أخذت ضوءا أخضر من واشنطن بتوغل عسكري محدود داخل الأراضي السورية، وأن الإدارة الأميركية لا تمانع فيه كلياً، على أن يكون ضمن الحدود المتفق عليها، مع بقاء المخاوف الأميركية من ترك العنان لتركيا للتوغل داخل الأراضي السورية، وما يترتب عليه من عواقب؛ أولاها عودة تنظيم داعش، خاصة أن قرابة 14 ألف مقاتل من تنظيم داعش، معظمهم أجانب، محتجزون في سجون تابعة لقوات سوريا الديمقراطية.

وثانيًا، سيمثل ذلك تنازلات أميركية مجانية تصب في مصلحة زيادة نفوذ تركيا، وقوة تحالفها مع روسيا عبر مسار أستانة، وزيادة في التوغل الإيراني، وكلّها عواقب مرفوضة إسرائيلياً ومن العديد من الدول العربية، التي أبدت موقفا واضحا وصارما ضد التوغل التركي في سوريا.

وثالثا، هي بمثابة ترك الساحة السورية لموسكو، لتعقد الصفقات مع أنقرة، بفتح حوار بينها وبين دمشق، لتقوم الأخيرة، بدعم روسي، بالسيطرة على ما تبقى من شرق الفرات، حيث تتركز غالبية الثروات النفطية والزراعية، وعلى إدلب، مقابل توسيع اتفاق أضنة إلى عمق يرضي الأتراك، ويشمل كامل الحدود مع تركيا، حتى شمال اللاذقية، بطول 900 كيلومتر؛ فقد التبس موقف موسكو من الهجوم العسكري التركي الأخير، بين متخوف من احتمال عقد اتفاق تركي- أميركي، وبين راغب فيه يريد تجييره لمصلحته، حيث جدد الروس مطالبتهم الأتراك بالعمل باتفاق أضنة، الذي لم تنكره حكومة أنقرة في رسالتها إلى الأمم المتحدة، لتبرير الهجوم.

ورابعا، مطامح أنقرة، وفق ما أعلنته، تتعلق بأن يكون كامل الشريط الحدودي وبعمق 32 كيلومتراً منطقة نفوذ لها، تريد إجراء تغيير ديموغرافي فيها، بإسكان مليوني نازح سوري في تركيا، ليسوا من أبناء هذه المنطقة، عبر بناء وحدات سكنية فيها، وهددت المجتمع الدولي بفتح الحدود أمام اللاجئين إلى أوروبا في حال تمت معارضة خطتها.

وعمدت تركيا إلى إعطاء العملية العسكرية صبغة إسلامية، حيث سمّت جيشها بالمحمدي، فيما ينفذ "الجيش الوطني" السوري، المشكل من فصائل تابعة لها، أجندتها؛ بينما لا ينبئ سلوك فصائل درع الفرات في جرابلس والباب، وغصن الزيتون في عفرين، بالقدرة على تحقيق الاستقرار، حيث تتصرف كعصابات للسرقة وطرد السكان الأصليين من الأكراد، وفرض لباس شرعي على النساء، وتهديم المقامات الدينية.

وخامسا، قد ينهار تحالف قوات سوريا الديمقراطية مع تخلي واشنطن عن دعمها، نتيجة سياسة التمييز التي يتبعها الأكراد ضد العرب، إضافة إلى الشقاق الكردي- الكردي، بين حزب الاتحاد الديمقراطي الموالي لعبدالله أوجلان التركي، وبين المجلس الوطني الكردي الموالي لتركيا، والذي قد يستقطب الكثير من الأكراد.

خوفاً من تلك العواقب، عاد الرئيس ترامب إلى الحديث عن خطوط حمر للعملية العسكرية، ربطها باستهداف المدنيين، ملوحاً بالعقوبات الاقتصادية، فيما طالب جمهوريون وديمقراطيون من الكونغرس بفرض عقوبات على تركيا.

كانت واشنطن قد عرضت على قوات سوريا الديمقراطية القبول بآلية أمنية بعمق 14 كيلومترا، وطول 70-80 كيلومترا، وهي المسافة بين تل أبيض ورأس العين. القصف التركي يتركز على هذه المنطقة، رغم توسعه شرقاً حتى ريف القامشلي، وإلى أعماق تصل حتى ريف الرقة الشمالي؛ لكن التوغل البري يهدف إلى محاصرة تل أبيض ورأس العين، من أجل استسلامهما، بعد أن سحبت القوات الأميركية قواتها من قاعدتها في المنطقة، فيما لا تتواجد قوات أميركية أخرى في العمق.

قد تكون هذه هي حدود العملية التركية المسموح بها أميركيًا، والأكراد أبلغوا بها في الغالب، ولعلها تنفيذ للعرض الأميركي، لكن بإعطاء رجب طيب أردوغان فرصة لحفظ ماء الوجه، مع تراجع قوته في الداخل التركي، بعد خسارته الانتخابات البلدية في إسطنبول.

مطامح أنقرة، وفق ما أعلنته، تتعلق بأن يكون كامل الشريط الحدودي وبعمق 32 كيلومترا منطقة نفوذ لها، تريد إجراء تغيير ديموغرافي فيها، بإسكان مليوني نازح سوري في تركيا، ليسوا من أبناء هذه المنطقة

في كل الأحوال يجب تذكّر أن وحدات الحماية الكردية لم تستهدف الأمن التركي طيلة فترة سيطرتها شرق الفرات، ما يضعف الحجة التركية، خاصة أمام الأوروبيين الذين أدانوا العملية. وكان الزعيم الكردي عبدالله أوجلان المحتجز في تركيا قد كتب رسالة إلى أتباعه الأكراد يوافق فيها على احترام المخاوف الأمنية التركية، ويفتح باباً للحوار مع السلطات. لكن حكومة أردوغان تصر على فرض أجندتها بالسيطرة على مناطق سورية واعتبارها ولايات تابعة لها.

هذه العملية ستكلف السوريين ثمناً باهظاً، ليس بسبب القتل والدمار الذي سينجم عنها وحسب، بل بسبب تعميق الشرخ العربي- الكردي؛ مع المخاوف من ذهاب العملية إلى الأسوأ، أي استبدال سكان تل أبيض ورأس العين والدرباسية الأكراد بآخرين عرب، مع فعل مماثل في مناطق عربية في الرقة، تحت السيطرة الأميركية، يشبه ما حصل في عفرين التي كانت بغالبية كردية، وتسيطر عليها فصائل عربية إسلامية تابعة لتركيا، وتل رفعت العربية، التي يسيطر عليها الأكراد تحت الوصاية الروسية.

العملية العسكرية تزيد من مأساة السوريين

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk